من حلقات «سيرة ذاتية»

كيف صدرت «الآداب» عام ١٩٥٣...

بقلم الدكتور سهيل إدريس

يبدأ رئيس التحرير، من هذا العدد الذي تدخل به «الآداب» عامها السابع والثلاثين، نشر مذكّراته التي تتناول سيرته الذاتية، وتتضمّن ذكرياته ويوميّاته ومراسلاته وعلاقاته وتعليقاته... وكلّ ما يلقي الأضواء على فترة أربعين سنة تقريباً من حياته وحياة الأدب العربي الحديث التي شارك فيها وكان من شهودها.

وقد رأى رئيس التحرير أن يستهلّ نشر هذه المذكرات بحلقة تتعلّق بـ «الآداب» وكيف صدرت في مطلع عام ١٩٥٣، بمناسبة انقضاء ستة وثلاثين عاماً على عددها الأول، وهي أطول مدّة عاشتها مجلة أدبيّة عربيّة بلا انقطاع، وستعود إلى الصدور الشهريّ المنتظم، بإذن الله، ابتداء من هذا العدد.

«التحرير»

طوال الرحلة التي قضيتها على ظهر الباخرة العائدة بي من مرسيليا إلى بيروت، أواخر شهر أيّار (مايو) ١٩٥٢، كنت أفكّر بالمجلّة التي سأصدرها في مطلع عام ١٩٥٣.

كانت «الآداب»، وكنت قد عزمت منذ أشهر على إطلاق هذا الاسم عليها، حلماً يراودني ويقطع عليّ، في كثير من الأحيان، الأفكار التي كانت تشغلني في إعداد رسالة الدكتوراه الجامعية في جامعة السوربون بباريس.

صحيحٌ أن تجربة الصحافة التي كنت قد عشتها في بيروت، بين جريدة «بيروت» اليومية و«بيروت المساء» و«الصيّاد» الأسبوعيتين، لم تخلِّف لديّ الرضى والاقتناع، وأنّ قراري بالتخلّي عن العمل الصحفي الذي استغرقني سبعة أعوام (١٩٤٢ - ١٩٤٩) كان مبعثه إيماني بأن هذه الصحافة ستقضي فيّ على الأديب، فإنّ تفكيري بإصدار مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر كان يصدر عن رؤية مختلفة تركّز على أرقى ما يمكن أن تُنتجه الأقلام العربية الحديثة، وتحمل رسالة الأدب العربي في أعلى ما يمكن أن يصبو إليه.

والواقع أنّي إنما عملتُ في الصحافة اليومية والأسبوعية بدافع من حاجة ماديّة. ذلك أن أبي كان ينوء بأعباء أسرة تتألّف من سبعة أفراد، بالإضافة إلى أمّي. وكان أخي الأكبر قد ترك المدرسة، لا تحت ضغط هذه الحاجة الماديّة وحدها، بل لأنه كذلك لم يكن يطيق المدرسة والكتاب.. وقد عمل في متجر خالٍ لنا كان ذا حسّ تجاري عميق. بيد أن الراتب الذي كان أخي يتقاضاه كان أعجز من أن يفي

بالمساعدة المطلوبة التي كان أبي يحتاجها للقيام بأود الأسرة الكبيرة.

ثم طرأ على أبي ما قلّص راتبه إلى النصف، بسبب واقعة كنت أنا بطلها... فأحدثت لديّ أزمة ضميريّة جعلتني أبحث عن عملٍ يعوِّض بمردوده الماديّ بعض الخسارة التي أصابها أبي بسببي.

ذلك أن أبي، بعد كارثة الإفلاس في تجارة الحبوب التي كان يتعاطاها، اضطرّ إلى القبول بوظيفة إمام في مسجدين من مساجد بيروت كان يؤمُّ مُصلّي العصر والمغرب في أحدهما، ومصلّي الفجر في الآخر. وكنت آنذاك طالباً في «الكلية الشرعية» في بيروت التي كان يرأسها مفتي الجمهورية الشيخ توفيق خالد الذي كان في الوقت نفسه مشرفاً على الأوقاف الإسلامية، وهي الدائرة المسؤولة عن المساجد وموظّفيها، من أئمة ومؤذّنين وخَدَم.

وحين اعتزمت التخلّي عن زيّ الشيخ الديني الذي كنت أرتديه، بعد أن أنهيت دراستي في الكلية الشرعيّة، وخلعت الجبّة والعمة اللتين لازمتاني طوال خمسة أعوام من حياتي، غضب رئيس الكلية غضباً شديداً، فكان أن انتقم من أبي إمام المسجد الذي «لم يحسن تربية ابنه» ولم يَثْنِهِ عن «عمله المنكر» بخلع زيّ المشيخة، وأوعز بحسم نصف راتبه، إلى أن يرتدع ابنه عن غيِّه ويعود إلى جادّة الصواب...

اشتدّت الأزمة الماديّة في أسرتنا، فكان لزاماً عليّ أن أفكّر في الإسهام بالميزانية الشهريّة...

حضرت ذات مساء جلسة عائليّة التقيت فيها بالأستاذ محيي الدين النصولي، صاحب جريدة «بيروت» الذي لم أكن أعرفه، فأبلغني أنه قرأ لي مقالة قصيرة في مجلة «الأمالي» التي كان يصدرها الدكتور عمر فرّوخ، وعرض عليّ العمل في جريدته، فلم أتردّد لحظة في القبول، بالرغم من أن دراسة الحقوق التي كنت قد بدأتها بعد نجاحي في شهادة البكالوريا (قسم الفلسفة) كانت تستغرق كل وقتي وجهدي. وبعد ذلك ببضعة أشهر اتّصل بي سعيد فريحة رئيس تحرير «الصيّاد»، عارضاً أن أشارك في تحرير مجلته. وهكذا انغمرت في العمل الصحفيّ، وفي يقيني أن الفرصة ستتاح لي لممارسة الكتابة الأدبية، ولا سيما في القصة والنقد. وعلى أن عملي في جريدة «بيروت» ثم في شقيقتها «بيروت ـ المساء» الأسبوعية كان ذا تأثير إيجابي على مسيرتي الأدبية، فإن عملي في «الصيّاد» ضيَّق عليّ آفاق الأدب، لأن سعيد فريحة كان يصرُّ على التدخُّل في إنتاج كلِّ كاتب يتعاون معه في مجلّته، بحجّة أنه كان حريصاً على المحافظة على خطّها، وكان لا يحبّ القصة الفنّية القصيرة، ويحرمني من نشر ما أكتب من ألوانها، طالباً مني أن اقتصر على النقد السريع والمقال الخفيف وبريد القراء وما إلى ذلك... وكان من تأثير عملي في هذه المجلة مدة سبع سنوات أن كرهت الصحافة الأسبوعية، وأيقنت أن الصحافة، إذا لم يشرف عليها مثقّف واعٍ، تسيء إلى الأدب وتعود إليه بأوخم الأضرار.

على أن التعويض الذي كنت أتقاضاه من العمل الصحفيّ استطاع أن يخفّف من الضائقة الماليّة التي عاشتها أسرتي، وأن يخفّف من الأزمة الضميرية التي نشأت من جرّاء حرمان أبي من نصف راتبه طوال عامين أو ثلاثة، بالرغم من أن هذا العمل الصحفي كان سبباً في صرفي عن إتمام دراسة الحقوق بعد أن رسبت في الامتحان الشفهي بالسنة الأولى.

* * *

كان الأدب يستهويني منذ نعومة أظفاري، وكانت قراءة الآثار الأدبية للروائيين والقصّاصين والنقّاد والدارسين مُتعة أوثرها على جميع المُتع الأخرى. وكنت أقتني، وأنا بعد على مقعد الدروس الابتدائية، ما أستطيع من كتب ومجلّات أدبيّة، وكنت متعلّقاً، على الأخصّ، بمجلتي «الرسالة» التي كان الأستاذ أحمد حسن الزيّات يرأس تحريرها و«الثقافة» التي كان الأستاذ أحمد أمين يشرف عليها. وقد تابعت في هاتين المجلتين إنتاج أفضل الكتّاب والأدباء العرب، وأحببت أسلوب الزيّات ولغته المتينة ومقالات زكي مبارك وسيّد قطب وشوقي ضيف وكثيرين غيرهم، ممن سأتحدّث، في مجال آخر، عن تأثيرهم في تكويني الأدبي. وكان اليوم الذي يحمل إليّ فيه بائع صحفٍ هاتين المجلتين كل

أسبوع، مخصّصاً كله لقراءتهما والاستمتاع بمادّة أدبيّة شهيّة توفّرانها لكلّ قارىء. ولا شك في أن معظم الأدباء العرب المحدثين قد تربّوا على «الرسالة» و«الثقافة» مثلما تربّى الجيل السابق على «المقتطف» و«الهلال».

وفي بيروت، كنت أتابع «المكشوف» التي كان يديرها فؤاد حبيش، وأقرأ ما يكتبه فيها رئيف خوري الذي سيصبح فيما بعد إحدى الدعامات الأساسية في «الآداب»، وأحبّ صديق ورفيق في درب الأدب الطويل. كما أن مجلة «الأديب» التي أنشأها البير أديب هي التي رَعَتْ خطواتي الأولى في القصة القصيرة والنقد، وفتحت صدرها لكلّ ما كنت أرسله إليها، على فجاجة بعضه. ولولا أنّ «الأديب» قد حضنت كتاباتي الأولى، لما أتممت مسيرتي الأدبية، ولولا تشجيع ألبير أديب لإنتاجي لما كانت الطريق مفتوحة لصدور «الآداب»، بالرغم من أن صاحب «الأديب» لم يكن مرتاحاً لصدور هذه المجلة الجديدة التي أحدثت منذ عددها الأول رجّة كبيرة في الحياة الأدبية العربية، وعدَّها الأستاذ ألبير، رحمه الله، منافساً خَطِراً لمجلّته...

أما «المكشوف» فهي التي نشرت أول مقال كتبته عام ١٩٣٩، وأنا لم أتجاوز الرابعة عشرة من العمر. وأذكر أني حين فتحت ذلك العدد من «المكشوف» وقرأت في الصفحة الثانية منه مقالاً بعنوان «رسالة الغفران» ـ دراسة وتحليل بقلم سهيل إدريس، أصبت برعشة في جسمي كله، ورأيت الصحيفة تهتزّ بين يديّ.

من يوميّاتي

باريس ١٧ آذار ١٩٥٢

تلقّيت اليوم الرسالة التي كنت أنتظرها منذ أسابيع جواباً على رسالتي إلى الصديقين منير البعلبكي وبهيج عثمان، صاحبيْ «دار العلم للملايين» في بيروت.

أفرحتني موافقتهما على ما عرضته عليهما من مشاركة في تأسيس مجلة أدبية شهرية تستقطب أدباء العروبة وتحمل رسالة الفكر القوميّ التقدّمي.

وإذن، فهل أستطيع أن استبعد القلق الذي كنت أعانيه من حيث الدعم الماليّ للمشروع؟ إن المجلة ستصدر عن دارٍ ناجحة في النشر والتوزيع، وكانت قد نشرت لي أعوام ١٩٤٧ و١٩٤٨ و١٩٤٩ مجموعاتي القصصية الأولى «أشواق» و«نيران وثلوج» و«كلهنّ نساء» التي دفعتُ نفقات أولاها وشاركت في تكاليف الأخريين. وكانت الدار نفسها قد قامت بنشر الكتاب الأول الذي ترجمته عن الفرنسية تحت عنوان «ما يجب ألاّ يجهله كلّ شاب»، فنالت مؤلفاتي الأولى رواجاً محدوداً. وحظي الكتاب المترجم، ضمن سلسلة تتناول الهموم الاجتماعية، ومنها الهمُّ الجنسيّ، إقبالاً جيّداً.

حين فرغت من قراءة رسالة الصديقين بالموافقة على فكرة المشروع، قلت في نفسي: «حسناً! لنَنْسَ القلق الماليّ الآن، ولنواجه القلق الأدبيّ!».

ليست لديّ أوهام في أني مقدمٌ على مشروع كبير أحتاج فيه إلى دعم وثيق من أقلام قديرة كنت أحبّها وأقرأ لها في المجلات الأدبية والصحف الأسبوعية، فكيف السبيل إلى استمالتها وإقناعها بالإسهام في إطلاق «الآداب»؟

وبدأت أتصوّر لائحة أوّلية بأسماء الأدباء العرب الذين سأطلب مساعدتهم وسأعرض عليهم أن يكونوا في «هيئة تحرير الآداب».

سيساعدني منير وبهيج في اختيار أعضاء هذه الهيئة، فلهما أصدقاء كثيرون ممن يتعاونون مع «دار العلم للملايين» في نشر مؤلفاتهم، ولهما خبرة مشهود لها في النشر والتوزيع.

لا بُدّ أن أضمِّن رسائلي إلى الأدباء العرب الخطوط العريضة لرسالة الآداب، وستكون هذه الخطوط أشبه ببرنامج انتخابيّ أقدّمه إلى الأدباء والقراء، كما يقدِّم المرشح للنيابة برنامجه لناخبيه.

أتراني سأنجح في دخول عالم الأدب، عبر «مجلس الصحافة الأدبية»، أم سيخذلني الأدباء والقراء في معركة «الآداب» القادمة؟»

* * *

لم يكن لي همٌّ، حين عُدت إلى بيروت في مطلع صيف ١٩٥٢، إلاّ الاستعداد لإصدار المجلة في مطلع ١٩٥٣.

وقد أخلت «دار العلم للملايين» غرفةً من غرف مكتبها في «شارع سوريا» بالخندق الغميق لتحلّ فيها شريكتها «الآداب» ورئيس تحريرها الذي سيكرّس جهده للجانب التحريري، وتتولى «دار العلم» الجانب الإداريّ والمالي.

وتداول الشركاء الثلاثة في رأس المال الذي سيوضع للمجلة، فاتفقوا على أن يكون ستة آلاف ليرة لبنانية أدفع منها الثلث، ويدفع الثلثين الشريكان الآخران.

ولم يكن يعنيني أن يكون نصيبي المادّي في الشركة أكبر أو أصغر، فالمهمّ أن تصدر المجلّة ويتحقّق الحلم، ولن أجعل «الآداب» مورد رزق لي، وإن كنت أريدها ألّا تعود علينا بالخسارة، فأضطرّ إلى «الاقتراض» مما سيردّه عليّ التدريس الجامعيّ أو التأليف والترجمة، وكنت أُعدُّ نفسي لها، ليقيني الكامل بأن «الآداب» لن تستطيع أن تقوم بالأود.

وفي صيف ذلك العام ١٩٥٢، رأيت أن أفيد من الخبرة الصحفية التي كان يتمتّع بها المشرفون على الصحيفتين اللتين عملت فيهما قبل سفري إلى باريس، فدعوت إلى الغداء في مصيف «عيناب»، الذي كانت الأسرة تقضي فيه الصيف منذ أعوام، كلاً من محيي الدين النصولي وعبدالله المشنوق وأنيس النصولي، أصحاب جريدة «بيروت»، ومحمد النقاش، أحد أصدقاء العمر القلائل الذين أحبّهم وأحترمهم ويمحضونني وداً عميقاً لا يمكن أن تشوبه شائبة، وقد كنّا زميلين في كلّ من «بيروت» و«الصياد» سنين طويلة.

كتب محمد النقاش[1] يتحدث عن ذلك اللقاء في «عيناب»، يقول:

«لما التقيت بصديقي سهيل إدريس في باريس ربيع ١٩٥١، وكان مكباً على عمله الدراسي في السوربون يجمع المصادر والوثائق لأطروحته عن القصّة العربية الحديثة ومدى تأثّرها بأدب الغرب، يسلخ من ربيع عمره ومن أيام باريس الحافلة عشر ساعات في اليوم، سألته وقد هالني هذا الجهد يبذله سهيل في الدرس والتحصيل بعد أن شقّ لنفسه في الصحافة والأدب طريقاً تحفّ به الآمال، وتلوح في آفاقه الوعود:

ـ ما عساك فاعلاً حين تعود؟

وجاء الجواب واضحاً شفافاً كنفس سهيل:

ـ لا أعرف ما الذي سأفعله على وجه التحقيق لكسب معاشي. لكن أعرف بالتأكيد أن هناك شيئاً لن أفعله، وهو أن أعود إلى الصحافة اليومية، وأن شيئاً سأفعله، وهو أن أصدر مجلة أدبية، مجلة تعنى بالأدب وحده، بأرقى ما يمكن أن تنجبه الأقلام العربية الحديثة، مجلة تحمل رسالة الأدب العربي في أعلى ما يمكن أن يصبو إليه...

وأذكر أني وافقته على الشطر الأول، وأبديت مخاوفي من الشطر الثاني، إذ كيف تكتب الحياة في بلدنا لمجلة من هذا الطراز الذي ينتويه. ورحت أعدّد المصاعب المعنوية والمادّية ـ لا سيّما المادّية ـ التي لا بدّ أن تقف حجر عثرة في وجه المشروع.

وعاد سهيل ـ الدكتور سهيل هذه المرة ـ إلى بيروت في مطلع صيف ١٩٥٢، وسألته مجدّداً عما ينوي أن يفعل، فقال: المجلّة التي حدّثتك بها.

وعاودت الكرة أحاول تثبيط همّته وثنيه عن عزمه، خاشياً عليه أن يضيع في المجلة كلّ أتعابه في أعماله الثانية من تدريس وإذاعة وتحرير. وكان الجواب:

ـ هذا موّال يدوي في رأسي، ولا مفرَّ من أن أغنّيه.

وفي منتصف ذلك الصيف تغدّينا، أنا ومحيي الدين النصولي وعبدالله المشنوق وأنيس النصولي على مائدة سهيل فوق كتف من أكتاف عيناب الهادئة، ودفعنا له ثمن الغداء اللطيف، متضامنين متكافلين، معزوفةً من التثبيط، وكان قائد الجوقة الأستاذ المشنوق الذي دخل في التفاصيل واستشهد بالأرقام، ليعلن في النهاية إفلاس سهيل إدريس إذا ما أصرّ وأقدم على إصدار المجلة الجميلة البديعة العظيمة، لكن الخاسرة...

ولا أدري إذا كان سهيل قد نَدِمَ إذ أضافنا ذلك اليوم...

(١) في باب «قرأت العدد الماضي من الآداب» العدد السادس، حزيران ـ(يونيو) من السنة الأولى ١٩٥٣.

لكنه على أيّ حال لم يغيّر فكره، وظلّ الموّال في رأسه أقوى من معزوفتنا...

واليوم، وبعد شهور، يطلب إليّ صديقي سهيل رئيس تحرير «الآداب» أن أروي انطباعاتي عن العدد الخامس من مجلة «الآداب». العدد الخامس... سامع يا محمد، يا عبدالله، يا أنيس، يا محيي الدين؟ خمس أصابع في عيني الشيطان!..

هل يربح سهيل؟ هل يخسر؟ هل يرسمل؟ لا أعرف! لكن الذي لا شك فيه أنه مثل شيخ همنغواي قد ضرب في البحر واندفع في عرضه إلى أبعد ما يستطيع، وصاد سمكة جميلة ضخمة، ومن حسن الحظّ أنه لم يذهب وحيداً، ولم يذهب معه غلام، بل ذهب معه صيادان مثله هما الصديقان منير البعلبكي وبهيج عثمان. وقد استطاعوا جميعاً أن يردّوا عن السمكة أذى الأقراش حتى الآن، وليس ما يمنع أن يردّوا هذا الأذى في بقية الطريق.

إن الأصدقاء الثلاثة الذين جمعتهم في الماضي أكبر من صلة يناضلون اليوم في قارب واحد. ولسنا نملك، بعد أن رأينا صيدهم، إلاّ أن نعترف بأننا كنّا على خطأ وأنهم كانوا على صواب».

* * *

فور عودتي من باريس إلى بيروت، في مطلع ذلك الصيف، كتبت إلى زهاء ثلاثين كاتباً عربياً، فيهم الشاعر والباحث والروائي والقصّاص، أحدّثهم عن مشروع «الآداب»، وأنقل إليهم الخطوط الكبرى من رسالتها الأدبية، وأطلب منهم الانضمام إلى «هيئة التحرير». وقد أعانني في الاتصال ببعض هؤلاء الأدباء زميلاي في المجلة، البعلبكي وعثمان، وصديقي في مصر، أنور المعداوي، الذي سأتحدّث عنه طويلاً في مجال آخر، والذي كتب يقول تعليقاً على رسالتي إليه حول مشروع المجلة:

«نظرت إلى «الآداب» في ضوء كلماتك، فراعني هذا البرنامج الضخم الذي أعددته وتلك الأهداف المثلى التي تسعى إلى تحقيقها في ثقة واطمئنان. إنني أهنئك منذ اليوم على هذه الروح الوثّابة التي تتطلّع إلى آفاق كانت وماتزال أمل الخاطر وحديث الوجدان! ولك أن تثق كلّ الثقة من أنني سأكون إلى جانبك دائماً بقلبي وقلمي حتى تتحقّق تلك الأمنية الغالية، أمنية البعث الفنّي لأدبنا الذي مات... صدقني، لقد كدت أن أنفض يدي من هذا الأدب حين رأيته يحتضر على أيدي الفارغين وبين سطور المجلات الهزيلة.. وأخيراً جاءت رسالتك وكأننا على ميعاد... جاءت تحمل نفس الشروط والأهداف التي آليت على نفسي أن تكون هي الثمن الوحيد الذي أتقاضاه لأعود إلى القلم... إن موقفي من عرضك هو موقف الترحيب بدعوة مخلصة من صديق أثق بذوقه الأدبيّ وأطمئنّ إلى وعده الصادق، وأؤمن بكفاحه في سبيل المثل العليا الفكريّة» (من رسالة بتاريخ ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) أرفق بها مقالة للنشر في «الآداب»، بعنوان «المرأة في حياة شاعر» وهو علي محمود طه).

وتلقيت من الدكتور عبدالله عبدالدائم، الذي كان أحد أصدقائي الخلّص ورفاقي في باريس، رسالة بعث بها من دمشق حيث كان يدرّس في معهد العلمين العالي بالجامعة السورية، جاء فيها (بتاريخ ١٣ تشرين الأول ١٩٥٢):

«أخذت رسالتك في وقت كنت منصرفاً فيه إلى قراءة كتاب Le Confort intellectuel من تأليف Marcel Aymé (وأنت تقدر قلمه كما أقدره) وكنت امتّع الفكر باستجلاء كلمات قويّة يتحدّث فيها الكاتب عن أثر الأسلوب في إثارة القلق الاجتماعي، وعما يسيل من القلم من قطرات تسيل منها دماء على حد تعبيرنا نحن العرب. إنه يرى، وحقّ ما يرى، أن الخطر الحقيقي الذي هدّد الطبقة البورجوازية مثلاً لم يصدر عن ماركس بقدر ما صدر عن أمثال «بودلير» و «دولاكروا». فماركس وحده لم يكن ليقوى على إقناع الطبقة البورجوازية بالانتحار، لأن المنطق العقلي وحده لم يكن في يوم من الأيام قادراً على أن يجرف عاطفة، ولأن الحجّة يسهل قرعها بحجّة مقابلة. أما الصورة الأدبية العنيفة المترعة بالإشعاع، والبيت من القصيد يطفح بالظلّ وباللحن المضطرب والرنين الفذّ؛ أما السرّ الذي ينشره لفظ جليل أو يُشتمّ وراء أسلوب ناطق، فكل تلك قوى حقيقية تعمل في النفس عمل الخمر، وتدخل في الجسد نفسه عادات من

التفكير والشعور لم تكن لتدخله عن طريق العقل والعقل وحده.

«كنت أقرأ هذا ورأى فيه توكيداً لفكرة طالما آمنت بها، تحدّثنا عنها معاً في أحد اجتماعاتنا في غرفتك الصغيرة بباريس، أعني بهذه الفكرة الإيمان بما سمّيته الأدب الفعّال، وبأنّ كلّ نهضة اجتماعيّة قوميّة لا بدّ أن يسبقها مهادٌ من الأدب يفسح أمامها الطريق، وأن قصّة كقصة «الحكيم» لـ John Knitell مثلاً (أو «كالرغيف» لتوفيق يوسف عواد كما ذكرت لي) تفعل في جمهورنا العربي ما لا تفعله ألوف المحاضرات. إن الانقلاب الاجتماعي القوميّ الألماني لم يحدث قبل أن يصدح به كلّ نغم في الأدب الألماني. وإن انقلابنا المنتظر لن يكون قبل أن يرهص به الشعر والفن والأدب. إن الفنّان، بحكم حساسيّته المرهفة، أسبق إلى إدراك الاتجاهات الروحية التي سيتمخّض عنها مجتمع ما، فإذا لم تظهر بوادر هذه الاتجاهات في ما ينتج، كان ذلك دليلاً قاطعاً على أنّ هذه الاتجاهات ماتزال غامضة سطحيّة، وأن جذورها في المجتمع غير راسخة بعد».

وأنهى عبدالدائم رسالته بقوله: «آمل أن يكون شأن مجلّتك ومجلّتنا شأن تلك المجلات الألمانية التي احتضنت وربّت عدداً كبيراً من الأدباء الشباب، والتي نجد صورة جميلة عنها في كتاب زفايغ Zweig الذي عنوانه «عالم الأمس» Le Monde d'hier. ولا أشكّ في أن الرسالة المثلى التي رسمتَها للمجلة بالغةٌ غايتها ما دمت تغذّيها بإيمان برسالة الفكر غزير عندك، وما دمت قادراً على التصوّف في سبيل مثل هذه الرسالة».

وجواباً على رسالتي، كتب الأستاذ محمود المسعدي الذي كنت قد عرفته في باريس، يقول في رسالة بعث بها إليّ وكان يدرّس في معهدي الدراسات العليا في باريس وتونس:

«لست أعلم عناية أرهق ولا إصابة اتّجاه أشقّ من العناية بالفكر ـ لأنه مغامرات «صوفيّة» كلّه ـ ومن الاتجاه في شعاب الأدب ـ لأنّ جوهره خلق مستمرّ لا يعرف له السالك وجهاً قبل خلقه. ويقيني أنّك لم تضطلع بذلك كلّه إلاّ في علم بثقل مؤونته وأهوال مخاوفه وكثرة مزالقه، مفضّلاً الاجتهاد و «الالتزام» على دعة الكسب وطمأنينة الربح. فالأدب ـ كما علمت ـ من دم الأديب ولحمة يُقدّ، ومن جوهر كيانه يُعْتصر، وهو نزيف الروح تتساقط خلجات حيّة حتى تنفد الروح وتفنى الحياة وترتد الخلجات إلى سكون الأبد. وليس في هذا ما ينتسب إلى الكسب أو الربح في شيء؛ وليس مرادي الكسب أو الربح المادّي المتعارف عليه عند هواة الحطام من الدنيا، وإنما أعني الكسب والروح الوجودي بما فيه من ارتياح حسّي ورضى عاطفي وسعادة لفظيّة وطمأنينة عدميّة. فمن طلب ذلك، فليتبوّأ مقعده من «الجنّة» ـ جنّة السذّج الوادعين، وليترك لغيره من الأدباء مجد «المغامرات الصوفيّة» الدامية، وفخر السعي بقلبه وعقله وكامل وجدانه وكيانه إلى صميم نار التجربة لمعنى «الإنسانيّة» (١٩ تشرين الأول ١٩٥٢).

وكنت كتبت إلى صديقين تربطني بهما علاقة أدبية وثيقة، هما توفيق يوسف عواد وخليل تقي الدين اللذين درست أعمالهما الروائية والقصصية في رسالة الدكتوراه، أدعوهما للإسهام في العدد الأول من «الآداب» وأسألهما أن ينضمّا إلى هيئة التحرير، فتلقّيت موافقتهما ضمن رسالتين خاصّتين كانت الأولى قطعة أدبية رائعة قال فيها توفيق يوسف عواد، وكان قائماً بأعمال المفوضية اللبنانية في طهران:

تلقيت كتابك المتوّج بـ «دار العلم للملايين» والموقع بـ «الدكتور سهيل إدريس»، ولك أن تقدّر احترامي للتاج، وودّي وإخلاصي للتوقيع. أما ما بينهما من آمالٍ معقودة على «الآداب»، فشيء تعلق بنفسي منه أشياء تطفو وتغور، ربما اختفت دهراً، فخلتها زالت واضمحّلت، ثم إذا هي تعود فجأة وتُتلع أعناقها، ليس لها سمتٌ ولا ميعاد. قد تطالعني وآنا آكل أو أشرب، فأغصّ باللقمة والماء القراح، وقد تتراءى لي في الحلم فتقضُّ عليَّ مضجعي. ولعلّ أشدّ ما يكون وقعها عليّ إذ أكون سائراً في طريقي ـ كعهدي بك في بيروت بالأمس ـ فتبغتني في منعطف، وتتناولني بيدين جبّارتين، على هزالها، وتخبطني بالحيط خبطاً وتصيح محملقة بي: «أنا هنا، يا خائن، فأين أنت؟».

«عجيب أمري مع هذه المخلوقة العجيبة! ولو سألتني أن أسمّيها أو أصفها لك لما استطعت. شيءٌ ـ قلت لك ـ أو أشياء تتجسّد حيناً في كتاب جديد يعترضني في واجهة، فأقف

إزاءه مبهوتاً، أدفع أنفي في الزّجاج وأودُّ لو أقتحمه لأشمّ رائحة الحبر بملء رئتيّ وأقضم الحروف بأسناني. وتتجسّد حيناً في ورقة خريف تتهاوى على رأسي في نزهة، أو في نجمة شاحبة تطلّ في أفق السماء. وبينما هي تخرج من أسمال فقير يزحف على الحضيض تارةً، إذا هي تارة أخرى تتململ في «الفراك» الذي أتزمّل به في بعض أوقاتي؛ حتى لقد ضاقت بي وضقت بها ذات لوم، وأنا أنحني أمام ملك من ملوك الدنيا، فوقفت دوني ودونه حيّة تفحّ مايزال لفح سمّها في وجهي».

ويمضي عوّاد في رسالته قائلاً:

«تلك هي الآمال المعقودة على «الآداب»، أو تلك هي رسالة الكاتب، أو ذلك هو مثل الفنّان الأعلى، هكذا يسمّيها الناس، وأنت منهم، وبهذه الألقاب يدلّون عليها. أما أنا فعذرك إذا لم أوفّق منذ البداية إلى هذه الألفاظ والنعوت، وعذرك من بعد، إذا صارحتك بأنني أكره الأخذ بها... تُرى، أهي في الأصل أقصر من أن تطال ما أريد، أم هي الكلمة تلوكها الألسن وتتداولها الأقلام، فتفقد طعمها، فهي على الاستعمال بغيّ؟

«كلّ ما أعرفه، يا أخي، أنني طلّقت الكتابة منذ زمان، وأنني منذ أن طلّقتها، وكأنني سلخت مني شيئاً كان في وقت من الأوقات كلّ شيء. إذا قلت اللّذة قصّرت، وإذا قلت المجد جدّفت، وإذا قلت الهناءة كلّها لم أقل شيئاً، لأنه كان أعمق من اللّذة كلّها، وأبعد من المجد كلّه، وأبقى من الهناءة. وأنا أذكر ذلك جيّداً.

«بل أنا أعرف ذلك جيّداً، فما بالي أداور وأروغ؟ كلّ الظنّ أنني أتلمّس الأعذار بل الأستار لخيانةٍ ارتكبتُها وما أزال أرتكبها كلّ يوم وكلّ ساعة، دونها خيانة الخليل لخليله، والجنديّ لوطنه، والمؤمن المتعبّد لربّه وخالقه. كيف لا وهي خيانة النفس؟

وأنهى صاحب «الرغيف» رسالته بقوله:

«أجل! خائنٌ نفسي أنا! اضطررتني، يا أخي، إلى قولها بما سقت إليّ، وإلى أمثالي، من تعنيف، وما أزجيته من استثارة للعودة أو بالحريّ التوبة. أفأنت قادرٌ على حملي إليها؟ أتكون «الآداب» خليقة بأن تردّني إلى ضالّتي المنشودة أو تردّها إليّ، فأطوقها من جديد بذراعي وأجعل ذراعيها طوقاً في عنقي إلى الأبد؟ أم تكون قصاراك أنك ألقيت في المياه الراكدة حصاةً وحرّكت في طمأنينتي توبةً كاذبة تنقضي بكلمةٍ حلاوتها من الشفاه وقبلة لا حلاوة لها، وبعدهما أعود إلى صحراء الحرمان وجهنّم الخيانة؟» (طهران ٣٠ تشرين الأول ١٩٥٢).

أما خليل تقي الدين، فقد بعث إلى «الآداب» من ستوكهلم، وكان وزيراً مفوضاً للبنان في الاتحاد السوفياتي والبلاد السكندينافية، فصلاً من أدب اليوميات حمله العدد الأول من المجلة تحت عنوان «تأملات في صقيع موسكو».

وأما القصّاص السوري فؤاد الشايب، صاحب «تاريخ جُرح»، فكنت قد كتبت إليه، وهو في منصبه كمدير عام للدعاية والنشر في سوريا، رسالتين أحثّه فيهما إلى العودة إلى ميدان الأدب الرفيع بعد أن هجره فترة طويلة، فأجابني برسالة ضافية، مذهلة في جمالها وفي ما انطوت عليه من شجون وهموم قومية، أقتطف منها هذه المقاطع:

«كانت رسالتك الأولى دعوة مغرية، أعطتني من حماستها وشوقها شيئاً كثيراً. وأشهد أنني منذ أعوام لم أقع على مثل هذا الصدق والقوّة والعزم في رسائل الإخوان والأصدقاء. فقد انطفأت الشعلة الأدبية في بلاد الناطقين بالعربية، وغدت التوافه والتوابل بضاعة الكتّاب والناشرين، فانجرفت في التيّار تلك الأدمغة الكبيرة نفسها وشوهدت، جماجم فارغة، تطفو في الزبد والغثاء. فأين عناصر الدم والفولاذ في كيان هذا الأدب المصاب بكساح الأطفال؟

«ولقد رأى المقعدون أمثالي في ما يرون، حجة لانعزالهم وانكماشهم، فحسبوا في عزلتهم التافهة أنهم قد نجوا من التيّار، ومثلهم مثل من هرب من الدبّ، فوقع في الجبّ، وأيّ جبّ!

«أما رسالتك الثانية فكانت بقصرها وخطوطها البارقة، ولهجتها المعنّفة، كدفقة من رشّاش تلطمني بها يدٌ قويّة. وبالواقع أنني ما زلت أحلم... منذ تلوت رسالتك الأولى، فما كدت أستيقظ وأمسح رشاش الماء عن وجهي، حتى بدأ جبيني يتفصّد عرقاً بارداً فيه رائحة الخجل منك ومن نفسي.

«أنا آسف يا أخي إذ أنام على رسالتيك، وفيهما من السياط

والإبر ما لا ينام على مثله إلاّ كلّ فاقد الحسّ مخبول. وهل أرضى لنفسي من أن أعترف بعجزها؟ بل إنني لألذّ هذه الاعترافات أحياناً، كما يلذّ اليائس لحناً حزيناً يأتيه من بعيد، فإذا جاء في صوت يهزّ كياني وينفخ في طموحي ويقول لي: أنت... ! شعرت بهذه «الأنا» تتلوّى كبعض الحشرات الصغيرة، يصيبها الدفء وتغريها أجنحة الفراشات السابحة في النور».

وبعد أن يتحدّث فؤاد الشايب عن «المنصب الرفيع» الذي كنت قد اتهمته، في رسالتي الثانية إليه، بالغرق فيه، ويعترف بأن هذا المنصب الذي يتولاّه منذ خمسة أعوام «كان إجهازاً على ما تبقّى من رسيس الشعلة المنطفئة» ارتدّ للحديث عن الهمّ القومي بلهجة تنبض بالصدق والإخلاص، وتعمّق لديّ شخصياً حسّ المسؤولية التي أخذتها على نفسي بأن أجعل من «الآداب» منبراً للتعبير عن الالتزام القومي والدفاع عن القضايا المصيرية في الوطن العربي.

وأشار الشايب في رسالته إلى البناء الذي كانت البلاد العربية تحاول إقامته بعد عهود الاستعمار والانتداب، وكان مما قاله:

«وانتشرت بلادي في أربعة الآفاق، تنشىء وتبني وتنطلق (...) وبينما هي تبني، وبينما يغنّي كلّ حجرٍ في البناء أغنية الحرية والسعادة، وجدت بلادي نفسها أمام خطر جديد. فلا بدّ لها أن تبني، ولا بدّ أن تحمي ما تبني. فاضطربت سعادتها والتوت حرّيتها، وها هو الخطر يقرع أسوارها وهي في المقدمة وخطّ النار، فيجب أن تحيط كلّ حجرٍ بسور، وتحمي كل شبر من أرضها بدرع، وإلاّ فلمن يعمل هؤلاء البنّاؤون، ولمن يرفعون عمد النهضة؟ ألا ويلنا من البرابرة الجدد! لقد رمانا الاستعمار وتجّار السلاح بالصهيونية، وغرسوها شوكة في جنبنا، لأن حريتنا المشرقة توشك أن تهدّد حياة الاستعمار برفع راية السلام بين المتخاصمين (...).

«أخي سهيل. قد يكون الأدب هوايتي وهواي... وهبتي، ولكن من أنا من الأنس لأنسى الليالي التي روّعت قلبي الصغير ببريق التفجير، وهدير التخريب؟ من أنا لأنسى مشهد الحمير تحمل ذات صباح، إلى ساحة المدينة، نخبةً من مجاهدي بلادي، فيُرمون على الأرض أشلاء ممزّقة دامية، ليعتبر بها كلّ من تحدّثه نفسه بثورة أو تمرّد؟ ثم وثم من أنا لأنسى صباحاً أغارت فيه طائرات البرابرة الجدد على المدينة، وراحت ترمي قذائفها، فأرى جدار جاري يتهدّم، ويبدو لي من فجوته سرير جارتي الصبيّة وقد مزّقتها الشظايا في بياض أغطيتها، وما كادت تستيقظ...

«من أنا لأنسى الليالي السود ورائي... والليالي السود أمامي؟ وهل أرى في يقظتي ومنامي سوى هؤلاء الأقزام من بابل الجديدة يبنون حصوناً، ويضعون سلاحاً، ولا ينفكّون يذهبون ويجيئون في دوار من حماسة جنون، وشهوة شيطان. عيونهم الحمر على حدودي، وأرضي وعاصمتي، وبيتي وأولادي، وأوراقي ومذكراتي، وصور ذكرياتي، وأرواح آبائي وأجدادي، وكلّ من أحبّ في هذه الدنيا!

«من أنا لأنكر، في وجه بائع الحليب من فلسطين يمرّ أمام بيتي كلّ صباح، شبح مستقبلي ومستقبل وطني؟! يمرّ بائع الحليب من فلسطين أمام بيتي ليبيعني ما فاض عن حاجته من موادّ الإغاثة. وقد كان موظّفاً مثلي في فلسطين، وكان له مستقبل في إحدى مؤسسات بلاده. إنه يبيعني الحليب ليشتري خبزاً لثلاثة أطفال تركهم منذ يومين تحت الخيام المنهارة، بلا خبز ولا أمل. فكم هي المسافة بالأعوام - قل لي - بين مصير أولادي ومصير أولاده؟».

ويمضي فؤاد الشايب في تساؤلاته المعذّبة المعذِّبة:

«ألم تكن الغسّالة التي تأتيني كلّ أسبوع لتنظّف ثيابي، ربّة بيت محترم في يافا قبل أعوام؟ إن ابنتها يلتهمها السلّ في أحد المصحّات وما كادت تبلغ الخامسة عشرة من سنّيها!... وابنتي أنا - إقبال - إن لها من العمر عشرة أعوام. فهل تغدو حبيسة أحد المصحّات بعد خمسة أعوام؟ في أحضان مَنْ وفي أيّ جهنّم من بلاد الله!

«هل تأتيني أنت لاجئاً، ذات يوم، تحمل أمتعتك على ظهرك، ولا تعرف أين تغمد قلمك: أفي نحرك فتخلص من الحياة، أم في أيّ عمل حقير تبقي به على حياتك الطويلة التافهة؟

«هل تأتيني أنت. . . أم أنني أنا الذي أصلك قبل، مشياً على الأقدام من دمشق إلى بيروت، وقد دفنت أحد أولادي على قارعة الطريق، ولا أعلم في أي منصعة أوْوي البنين وأمّ البنين! فهل في أزقّة بيروت وأرصفتها مكان بعد للاجئين جدد؟ وماذا أنت فاعلٌ بأحمالي وأوجاعي وجراحي. . . وهؤلاء الذين علقوا بكبدي كأختام من رصاص؟

«ألا تفضّل على هذا المصير، أن تموت في معركة، وتقتل أولادك من قبل، إذا لم يكونوا صالحين وقوداً للحرب المقدّسة؟

«أيها الأخ الكريم! قد أكون مريضاً ـ كما قد ترى ـ والحقّ أنني مريض، ولا أستطيع أن أبرأ من هذه اللوثة التي رماني بها شبوب النار حولي وبأذيالي، بينما كنت أظنّ أنني في أمن وسلام!

«أوّاه! هاتِ لي الأمن والسلامة، والفراغ، أعطك ما شئت من الأدب وفنونه. أو لم يكن ازدهار الأدب عبر التاريخ، في أجوء الطمأنينة والرخاء؟ أو لم تكن حماية الدول والملوك والعظماء، للأدباء ورجال الفنّ، نوعاً من سرادق الطمأنينة تُضرب أوتادُه حول حياتهم ليستطيعوا أن ينقطعوا لأدبهم وفنّهم؟

«بلى! إن ثمة عبقريات تغذّت بالنار والغبار. ولكن ليس في الأتون يُصبّ الحبر على الورق، ولم يكن للكتّاب بدّ من الارتفاع إلى قمّة الرابية حيث الظلّ والهدوء، بعيداً عن النار، ولو لأمد قصير. أي لا بدّ من الابتعاد عن الحدث مسافة زمنية ومكانيّة، تتيح لنا النظر إليه والإحاطة بحقيقته. أما الحدث نفسُه، في فورة تفاعله، فهو يشغل ويحجب، ولا يمكن تعريفه في فوريّته. وإن يستطع المؤرّخون والكتّاب السياسيون أن يماشوا الأحداث ويكاتبوها في اصطراعها، فإن ما ينتجونه ليس بالأدب، مهما بالغنا في إكرامهم. والأديب لا يأتي حدثاً بأدبه إلّا على بُعْدٍ منه في الزمان والمكان، لذلك عندما يؤرّخ الأديب يصنع أدباً كبيراً. وإن حديث هذا ليطول!

«أفترى؟ أَلْقِ الآن نظرة عامّة على هذه الرسالة، تَرَ في كلّ ما ذكرتِ لك عن حياتي، وحياة بلادي، وحياة الأدب حجّة مبرّرة لهزيمتي، وقعودي، وانطفاء طموحي الأدبي. هل ترى غير ذلك. وهل تقبل بها حجّة، وهل أقبل بها نفسي؟».

وفي نهاية الرسالة، يجيب الشايب على دعوتي له إلى العودة لكتابة القصّة بقوله:

«أما القصّة، فلا أقربها. إنّها حرمٌ لن أدخله إلّا وحدي، ومن حملتهم على كتفي معي، لأعيش معهم منقطعاً. وعليّ أن أجالسهم في مطعمي ومشربي ومهجعي، بعيداً عن كلّ دخيل من هواجسي، ومحيطي، حتى تأنس بي أرواحهم، ويدنيني إخلاصي لهم من حقائقهم، حتى ولو كان مثل دُنوّ الخصيان من حرم السلطان. وفيما عدا ذلك لا أستطيع إلّا أن أكون مزوّراً، وقاصّاً تاجراً. فهات لي الفراغ، وامنحني متعة الانقطاع والإخلاص».

نقلت هذه المقاطع الطويلة من رسالة فؤاد الشايب لأنها تعبّر عن مأساة كل نفسٍ من نفوس الأدباء الواعين حقيقتهم وحقيقة بلادهم المنافحة من أجل الحرّية. وإذ يعيد أحدنا اليوم قراءة هذه الرسالة التي غاب كاتبها منذ سنوات، يجدها مُرهصة بكل ما يعيشه المواطن العربي عامّة، والمثقف الواعي خاصة، من تمزُّق الروح والوجدان.

* * *

أليس ذلك التمزُّق هو الذي ألهب الوعي الذي خلقته في نفسي هزيمة العرب في فلسطين عام ٤٨؟

في تلك الفترة، كان وعيي يعمق بضياع الإنسان العربي بين زيف الأنظمة والحكّام وتخلّف المجتمع الذي يعيش فيه. ويروح القلق يمزّق نفسي، وتروح أسئلة الاستفهام تنهال عليّ: ما شأني في هذا المجتمع؟ أيّ دورٍ يمكن أن أنهض به فيه؟ كيف لي أن أشارك في معاونة هذا الإنسان العربي ليتحرّر من ضياعه، ويعرف طريقه؟ أليس للمثّقف العربي من مهمّة في ذلك الواقع الفاجع؟

وإذن، فإن هزيمة فلسطين هي السوط الذي لسع ضمائرنا، وهي التي دفعتني إلى التمرّد على واقعي، فعزمت على أن أخرج من هذا الواقع، وأن أثور على المجتمع العربي، وأن أبتعد عنه، لا فراراً ولا غيبوبة، بل لمحاولة

اكتساب مزيد من العلم والمعرفة والتجربة يمكّنني من القيام بدور ثقافي في خدمة الوطن العربيّ الذي كان رازحاً تحت أثقال تلك الهزيمة الكبرى التي لم يعرف تاريخنا ما هو في مثل فظاعتها وإذلالها.

واستقلت من عملي في الصحافة في بيروت، وتدبّرت منحتين دراسيّتين أولاهما من وزارة التربية بدعم من واصف بارودي، مدير التربية آنذاك، والأخرى من جمعية المقاصد الإسلامية بدعم من أنيس النصولي الذي كان رئيساً للجنة المدارس فيها، وسافرت إلى باريس. وطوال ثلاثة أعوام (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢) قضيتها في العاصمة الفرنسية، عشت الأدب والثقافة والفكر، ولكني عشت الحياة كذلك، وسيكون لذلك حديث آخر.

كنت أقضي أياماً بطولها في مكتبة السوربون. وقد قرأت من الكتب الفرنسية في ثلاث سنوات ما لا أحسب أن شرقياً قد استطاع أن يقرأ في هذه الفترة. وقرأت كثيراً من الروايات والقصص العربية التي كانت موضوع رسالة الدكتوراه «القصة العربية الحديثة والتأثير الأجنبيّ عليها من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠».

ولا شك في أن نظرية «الالتزام» التي كانت سائدة في تلك الفترة، في الآداب العالمية كلّها، قد تجاوبت أعمق التجاوب مع التوجّه الفكري الذي كان يقودني بدافع من خدمة الثقافة العربية المعاصرة.

وكان تأثير هذه النظرية واضحاً في الخطّة التي وضعتها لـ «الآداب» وتحدّثت عنها رسائلي إلى الأدباء والمفكرين العرب الذين كتبت إليهم للإسهام في تحرير المجلة. وكانت تلك الخطّة تقوم على الأسس الكبرى التالية:

تؤمن المجلة بأن الأدب نشاط فكري يستهدف غاية عظيمة: هي غاية الأدب الفعّال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع، إذ يؤثر فيه بقدر ما يتأثر به. والوضع الحالي للبلاد العربية يفرض على كل وطني أن يجنّد جهوده للعمل، في ميدانه الخاص، من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السياسي والاجتماعي والفكري. ولكي يكون الأدب صادقاً، فينبغي له ألا يكون بمعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه.

وهدف المجلة الرئيسي أن تكون ميداناً لفئة أهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم، ويعدّون شاهداً على هذا العصر: ففيما هم يعكسون حاجات المجتمع العربي، ويعبّرون عن شواغله، يشقون الطريق أمام المصلحين، لمعالجة الأوضاع بجميع الوسائل المجدية. وعلى هذا، فإن الأدب الذي تدعو إليه المجلة وتشجعه، هو أدب «الالتزام» الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه.

والمجلة، إذ تدعو إلى هذا الأدب الفعّال، تحمل رسالة قومية مثلى. فتلك الفئة الواعية من الأدباء الذين يستوحون أدبهم من مجتمعهم يستطيعون على الأيام أن يخلقوا جيلاً واعياً من القراء يتحسسون بدورهم واقع مجتمعهم، ويكوّنون نواة الوطنيين الصالحين. وهكذا تشارك المجلة، بواسطة كتّابها وقرائها، في العمل القومي العظيم، الذي هو الواجب الأكبر على كل وطني.

على أن مفهوم هذا الأدب القومي سيكون من السعة والشمول حتى ليتصل اتصالاً مباشراً بالأدب الإنساني العام، ما دام يعمل على رد الاعتبار الإنساني لكل وطني، وعلى الدعوة إلى توفير العدالة الاجتماعية له، وتحريره من العبوديات المادية والفكرية، وهذه غاية الإنسانية البعيدة. وهكذا تُسهم المجلة في خلق الأدب الإنساني الذي يتسع ويتناول القضية الحضارية كاملة، وهذا الأدب الإنساني هو المرحلة الأخيرة التي تنشدها الآداب العالمية في تطورها.

وفي المنهج العام للمجلة أن تعمل على إخراج كثير من الأقلام المبدعة التي تؤثر الصمت والاختفاء على الظهور في نشرات هزيلة لا تعطي فكرة جيدة عن الأدب العربي الحديث. والمجلة إذ تُخرج هذه الأقلام من عزلتها، تتيح لأصحابها أن يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم، فيحاولوا الإبداع ويُغنوا الأدب العربي بنتاج جديد.

وفي هذا النطاق كذلك، ستعمل المجلة على إبراز حيوية الأدب العربي الحديث وخصبه وغناه، إذ ستشجع الألوان المحلية والطابع الخاص لكل أدب. وستضمّ صفحاتها نتاج أقلام تعتقد أنها تعبّر بصدق وإخلاص عن

خصائص الأدب في بلادها.

ومن أهداف المجلة أن تثير من القضايا الفكرية ما يُحيي الحركة الأدبية الهامدة في البلاد العربية ويفسح المجال واسعاً للمناقشات والمطارحات والمعارك القلمية. ولا بد من أن يكون لهذه الحركة أثر بعيد في الإقبال على الكتابة والقراءة كلتيهما. وهذا النشاط جميعه جدير به أن يعطي الأجنبي فكرة صحيحة عن الأدب العربي الحديث ومشاركته في الحركة الأدبية العالمية. والواقع أن النتاج العربي المعاصر يكاد يكون مجهولاً في الأوساط الأجنبية، ومردّ ذلك قبل كل شيء إلى فقدان مجلة أدبية راقية تستعرض النشاط الفكري في البلاد العربية وتفسح المجال للأقلام القويه.

وكما ستحاول «الآداب» أن تعطي الأوساط الأدبية الأجنبية صورة صادقة عن نشاط العرب الفكري، فهي ستهتم اهتماماً شديداً بالآداب الأجنبية، فتعطي القارىء العربي صورة واضحة عن أحدث النتاج الغربي، عرضاً ودرساً ونقداً، وبذلك توفّر لقارئها ثقافة عامة مديدة الآفاق، ثم إنها ستتيح للأدباء والمفكرين العرب أن يتفاعل نتاجهم بالنتاج الغربي، فيكتسب قوة وعمقاً، فيما هو يحتفظ بطابعه وخصائصه الذاتية.

وستعنى المجلة عناية خاصة بالنقد الأدبي وبالقصة، فتحاول في الباب الأول أن تقوّم الآثار الأدبية، القديم منها والجديد، تقويماً موضوعياً مجرداً يضع كل كتاب في موضعه الصحيح، دون ما اعتبار لأحكام سابقة لم تُملها غالباً إلا رغبة متغرّضة في التقريظ أو في التجريح. وسوف تشجع في هذا الباب أيضاً جميع ألوان النقد الذاتي. أما في باب القصة فستفسح المجال واسعاً للجيل الجديد من أدباء الشباب الذين يستلهمون واقع مجتمعهم ويصوّرون عصرهم خير تصوير.

بهذا كله، سيتاح «للآداب» أن تكون مرجعاً مهماً من مراجع الأدب العربي الحديث يستشيره كل من رغب في الاطلاع على النشاط الفكري العربي، ولا سيما المستشرقون الذين لا تنقطع شكواهم من فقدان المراجع التي تمكّنهم من دراسة الأدب العربي المعاصر. وسوف تنشر المجلة في كل عدد من أعدادها دراسات واسعة عن الاتجاهات الحديثة في أدب الكتّاب العرب، في جميع ألوان نتاجهم، وستعهد بهذه الدراسات إلى متخصصين ينتمون إلى مختلف البلاد العربية».

* * *

هذه الخطّة، بأسسها الكبرى، تضمّنتها رسائلي إلى جميع الأدباء والمفكرين الذين كتبت لهم، أصدقاء شخصيين كانوا أم أصدقاء شريكيّ في دار العلم للملايين. وكان الذين وافقوا على الانضمام إلى هيئة تحرير «الآداب» اثنين وعشرين فيهم المفكر والشاعر والناقد والقصاص وهم (حسب الأحرف الهجائية):

أحمد سليمان الأحمد، علي أدهم، ذو النون أيّوب، منير البعلبكي، خليل تقي الدين، شكيب الجابري، جورج حنا، شاكر خصباك، رئيف خوري، عبدالعزيز الدوري، قسطنطين زريق، أحمد زكي، فؤاد الشايب، عبدالله عبدالدائم، مارون عبود، عبدالله العلايلي، توفيق يوسف عواد، نبيه أمن فارس، شكري فيصل، نزار قباني، صباح محيي الدين، أنور المعداوي.

كانت الغاية من «تنصيب» هيئة التحرير هذه إبراز توجّه «الآداب» توجّهاً قومياً عربياً يرفض التمييز الدينيّ والتمييز الإقليميّ. ولكن السؤال الذي ناقشناه آنذاك، كان: كيف يستطيع هؤلاء الأدباء جميعاً، في مختلف أقطارهم العربية، أن يشاركوا «فعلياً» في الإشراف على المجلة كما توحي عبارة «هيئة التحرير»؟

الواقع أني كنت أقدّر الصعوبة الكبيرة في تحقيق هذه المشاركة، إن لم تكن الاستحالة، ولكني كنت أعتزم الكتابة إلى جميع أعضاء «هيئة التحرير» أستشيرهم في كلّ ما تتطلّبه المجلّة من تطوير، وأسألهم رأيهم في ما ينشر في أعدادها تباعاً. غير أن تجربة السنة الأولى لم تكن مشجّعة، فقد شغلني إعداد المجلة وقراءة المادّة التي كانت تنهال عليّ، وتخصيص قسم من وقتي للتدريس في الجامعة اللبنانية وفي كلية المقاصد الإسلامية، وشروعي في كتابة الرواية والقصّة

والترجمة ـ كلّ ذلك جعلني أستأذن أعضاء «هيئة التحرير» في صرف النظر عنها. وهكذا اختفت «لافتة» «هيئة التحرير» في مطلع السنة الثانية من «الآداب».

بيد أن جميع هؤلاء الكتّاب والأدباء ظلّوا ـ ما داموا على قيد الحياة ـ أوفياء للمجلة التي «استعانت» بهم لتحقّق انطلاقها وانتشارها، بعكس كثيرين من الذين «استعانوا» بها ليحقّقوا انطلاقهم وانتشارهم، فجازَوْها بالعقوق!

* * *

من يومياتي

عيناب ٢٧ أيلول ١٩٥٢

«منذ أيام، وأنا في فرحة غامرة. إن «المادّة» التي بين يديّ تغطّي، في تقديري، أكثر من ثلاثة أعداد من المجلّة. وأنا أنتظر بعدُ كثيراً من الدراسات والقصائد والقصص التي وعدني الأدباء العرب بموافاتي بها للعدد الأوّل. والحقّ أنني الآن في «ربكة الاختيار» كما يقول الفرنسيّون.

«ولكن القلق الذي ينتابني، منذ أن تركت مكتبي في «دار العلم للملايين» أمس الأوّل، كان يمتُّ إلى تسديد نصيبي في رأس مال الشركة. لقد طالبني شريكاي ـ مرة أخرى ـ بدفع المبلغ إلى الصندوق المشترك حتى يتسنّى شراء الورق وتصفيف الموادّ. وطلبت تأجيل الدفع بضعة أيام أخرى لأنني لم أتمكّن بعد من جمع المبلغ المطلوب. وكنت أنتظر أن تصلني تعويضات بعض الأحاديث التي أذيعت لي من الإذاعة اللبنانية ومن محطة الشرق الأدنى لأضيفها إلى ما كنت قد وفّرته من بعض هدايا ماليّة قدّمها لي أقرباء بمناسبة حصولي على الدكتوراه.

كنت واقفاً على شرفة منزلنا الصغير (الذي كان يملكه أخوالي في عيناب وكانوا يدعوننا لقضاء الصيف فيه) أتطلّع إلى مياه المتوسّط البعيدة، حين أحسست بيدٍ على كتفي. قلت في نفسي، دون أن ارفع بصري، إنها، بلا ريب، يدها هي، تلك التي تمتدّ إليّ دائماً حين أحتاج إليها. يد أمّي «سهيلة».

قالت ما كنت أنتظر أن تقوله:

ـ أراك قلقاً. هل هناك عراقيل تعترض المجلّة؟

كانت أمي معنيّة بكل أمر من أموري. كنت أحسّ بأنّ حبّها لي يفوق حبّها لإخوتي جميعاً. أيكون ذلك لأني حصّلت في الدراسة، على تقطّعها، ما لم يبلغه أحد منهم، وأنّي حققت بذلك حلماً لها بأن تمضي في دراستها حتى تبلغ المرحلة الجامعية، فحال دون ذلك زواجها المبكّر بأبي؟

لقد رعت أمي خطواتي المبكرة في الكتابة، كما رعت خطواتي المتعثرة في الطفولة. كنت أقرأ لها كلَّ ما أكتبه، فتشجّعني على الاستمرار، ولا تضنّ عليّ أحياناً بالتعبير عن إعجابها. ومع الزمن، جعلت أحسّ بأن أمومتها كانت تزدوج بالصداقة. وهكذا أصبحت أمي سهيلة صديقتي كذلك.

لم يدهشني أن تطرح سؤالها الثاني قبل أن أجيب على الأول:

ـ لم تجمع بعدُ نصيبك في رأس مال المجلة، أليس كذلك؟

وحين لم أجب، مدّت إليّ يدها:

ـ هذا هو السوار الثاني. بِعْهُ وسدِّدْ ما عليك.

حين كنت أعانقها، وأنا أرتعش، ذكرت السوار الذهبيّ الأول الذي أعطتني إياه منذ ثلاثة أعوام، قبل سفري إلى باريس، وأوصتني بأن احتفظ بثمنه، «لحين الحاجة» قالت، «وأنت في الغربة».

ومرّتين اثنتين، أحسست بالحاجة ـ الشديدة ـ وأنا في الغربة: أولاهما حين تأخّر وصول قسط من المنحتين المخصّصتين لي في بيروت، وظلّت مديرة الفندق، الذي أسكن غرفة صغيرة على سطحه تجاه «البانتيون» في باريس، تطالبني بأجرة الأشهر الستة التالية، بعد انقضاء أسبوعين على انتهاء الستّة الأولى المدفوعة الأجرة، فدفعت لها ثمن الإسوار الذهبيّ الأول.

والمرّة الأخرى، هي تلك التي كنت أعاني فيها من ضيق شديد في باريس، بسبب نفاد مصروفي قبل الأوان وامتناعي عن الاقتراض من أصدقائي، ففوجئت ذات صباح برسالة في علبة غرفتي بالفندق، كان فيها دعوة من المصرف لقبض

حوالة وردت باسمي من بيروت. وأعلمني المصرف أن المبلغ ـ الذي هبط عليّ من السماء ـ كان من صديقي... محمد النقّاش. يا إلهي! كيف عرف محمد أني أعاني؟

حين أردت، لدى عودتي في أول هذا الصيف، أن أردّ «الدَّين» إلى النقّاش، رفض رفضاً باتاً وهو يقول «لم يكن ذلك ديناً، بل كان هديّة صغيرة منّي».

سألت أمي:

ـ أتذكرين السوار الأول؟ إنك تطوّقين عنقي أبداً بأساورك!

قالت وهي تهزّ رأسها باستسلام:

ـ انتهت الأساور. ستعتمد بعد الآن... على قلمك.

* * *

من يومياتي

٢٣ كانون الأول ١٩٥٢

ظللت أنتظره حتى السادسة، ثم غادرت المكتب بعد أن تلفن لي مدير المطبعة بأن العدد تأخّر في التجليد، وسيحمل إليّ في البيت ثلاث نسخ منه فور صدوره.

حوالى الساعة الثامنة، دُقّ باب منزلي، فتناولت من مدير المطبعة رزمة الأعداد الثلاثة وأنا أشكره، ثم دخلت غرفتي، وأغلقت خلفي الباب.

جلست على الأريكة، متهيّباً أن أفتح الرزمة. ثم تمّهلت في فضّ ورقتها.

وبرز لي غلاف العدد الأول من «الآداب»، وعليه صورة «الشاعر علي محمود طه».

تناولت العدد بيد ترتجف.

أحسست دمعة تغشى عينيّ. أتراني دخلت غرفتي وأغلقت خلفي الباب حتى لا يراني أحدٌ أبكي؟

بعد لحظات، دخلت هي الغرفة.

تناولتْ على يميني عدداً منها. وجلست إلى يساري، وأخذت تقلّبه.

ثم ضمّتني إلى صدرها وقالت بصوت مُخضلّ:

ـ مبروك!

ابتسمت وأنا أمسح دمعتي:

عن يساري، كانت أمي سهيلة. وعن يميني، ابنتي «الآداب».

إلى الأصدقاء الأدباء

يرجو رئيس تحرير «الآداب» من أصدقائه الأدباء في أرجاء الوطن العربي بمناسبة نشر مذكراته تباعاً في هذه المجلة أن يوافوه بصور من رسائله إليهم، إذا كانوا ما يزالون محتفظين بها، هذه الرسائل التي احترق قسم كبير من أصولها مع مكتبته الخاصّة التي أصيبت بقذيفة حارقة أثناء الاجتياح الاسرائيلي لبيروت عام ١٩٨٢.

إن هذه الرسائل ستكون ذات فائدة كبيرة لهذه المذكرات.